

الفصل الرابع عشر

عُلُوُّ الهِمَّةِ

في

الصَّمْتِ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

« عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فالذي نفسي بيده ، ما
تجمل الخلاق بمثلهما » .

obeikandi.com

□ علو الهمة في الصمت وحفظ اللسان □

اعلم - رحمتنا الله وإياك - « أن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ؛ فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه ما من موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيّل أو معلوم ، مظنون أو موهوم ، إلّا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي ، فإن كلّ ما يتناوله العلم يُعرب عنه اللسان ، إمّا بحق أو باطل ، ولا شيء إلّا والعلم متناول له ، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء ؛ فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصّور ، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .

واللسان رخب الميدان ، ليس له مرّد ، ولا مجاله منتهى وحدّ ، له في الخير مجال رخب ، وله في الشرّ ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخيّ العنان ، سلك به الشيطان في كلّ ميدان ، وساقه إلى شفا جُرف هارٍ ، إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شرّ اللسان إلّا من قيّده بلجام الشرع ، فلا يُطلقه إلّا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ، ويكفّه عن كلّ ما يخشى غائلته في عاجله وآجله . وعلم ما يُحمّد فيه إطلاق اللسان أو يُذمّ : غامض عزيز ، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير . وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان ، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذر من مصائده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ [المؤمنون : ١ - ٣] .

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ١١٨ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

ملاك الخير: كَفَّ اللسان:

عن معاذ رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويُباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على مَنْ يسره الله عليه؛ تعبدُ الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جنةٌ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل». قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟» قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلتُ: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه وقال: «كَفَّ عليك هذا». فقلتُ: يا نبي الله، وإنا لَمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ»^(١) يا معاذ؛ وهل يكُبُّ الناس في النارِ على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائدُ ألسنتهم»^(٢).

أطايِبُ الكلام ثورث سكتى أعالي الجنان ، وهي من رضوان الله تعالى :

✓ عن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة عُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنُها من ظاهرها ، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألَانَ الكلام ، وتابَع

(١) فقدتُكَ ، وفي « النهاية » : « ويجوز أن يكون من الألفاظ التي تجري على ألسنة

العرب ، ولا يُراد بها الدعاء ، كقولهم : تَرَبَّتْ يداك ، وقائلُك الله » .

هذا وإن كان دعاءً ؛ فهو طهور وزكاة ، وقربة له من الله تعالى يوم القيامة ؛ كما في حديث مسلم : « فأَيُّما أحد دعوتُ عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل ؛ أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربُ به منها يوم القيامة » .

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل برقم (٤١٣)،

وصحيح سنن الترمذي برقم (٢١١٠)، وصحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٠٩).

الصيام ، وصَلَّى بالليل والناسُ نِيَامٌ ^(١) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَطِيبِ الْكَلَامَ ،
وَأَفْشِرِ السَّلَامَ ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ ، وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ
بِسَلَامٍ » ^(٢) .

وقال ﷺ : « إِنْ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى ، مَا كَانَ
يُظَنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ
لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ ، مَا كَانَ يُظَنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ، يَكْتُبُ اللَّهُ
لَهُ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ » ^(٣) .

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أُعْتَصِمُ بِهِ قَالَ : « قُلْ : رَبِّيَ اللَّهُ . ثُمَّ اسْتَقِمْ » . قلتُ : يَا رَسُولَ
اللَّهِ ، مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا » ^(٤) .

وَمِنْ غُلُوِّ الْهَمَّةِ طُولُ الصَّنَمَةِ إِلَّا عَنْ خَيْرٍ :

قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكَ بُحْسُنُ الْخُلُقِ ، وَطُولُ الصَّنَمَةِ ، فَوَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا تَجَمَّلُ الْخُلُقُ بِمِثْلِهِمَا » ^(٥) .

(١) حسن : رواه أحمد ، وابن حبان ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ،
والترمذي عن علي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١١٩ .

(٢) صحيح : رواه ابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع
رقم ١٠٣٠ ، والصحيحة رقم ٥٦٩ ، ١٤٦٦ .

(٣) صحيح : أخرجه مالك ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني في الصحيحة
برقم ٨٨٨ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في صحيح
الترغيب والترهيب .

(٥) حسن : أخرجه أبو يعلى عن أنس ، وابن أبي الدنيا ، والبخاري ، والطبراني في الأوسط ،
والبيهقي في شعب الإيمان أيضاً عن أنس ، وأبو الشيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدرداء ،
وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٩٢٧ .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي المسلمين أفضل ؟ قال : « مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » . متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألتُ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » .

قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : « أن يسلم المسلمون من لسانك » ^(١) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علّمني عملاً يدخلني الجنة . قال : « إن كنت

أقصررت الخُطبة لقد أعرضت المسألة ؛ أُعْتِقِ النسيمة ، وفكّ الرقبة ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فأطعم الجائع ، واسقِ الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وإنه عن المنكر ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فكفّ لسانك إلا عن خير » ^(٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتَكَ ، وَأَبْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ » ^(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » ^(٤) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنك

(١) إسناده صحيح : رواه الطبراني ، وصدره في الصحيحين ، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٢) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم (٨٩٠) .

(٤) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

لن تزال سالمًا ما سكت ، فإذا تكلمت كتبت لك أو عليك ^(١) .
وعن معاذ رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أوصني . قال : « اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، وإن شئت ، أثباتك بما هو أملاك بك من هذا كله » . قال : « هذا » . وأشار بيده إلى لسانه ^(٢) .
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ؛ فتقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » ^(٣) .
وأخرج البخاري عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من يضمن لي ما بين لحييه ^(٤) وما بين رجليه ، أضمن له الجنة ؟ » .
وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان ^(٥) على جدته » ^(٦) .
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من صمت نجا » ^(٧) .

- (١) صحيح : صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .
- (٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد ، كما قال المنذري .
- (٣) صحيح : أخرجه الترمذي ، ورواه الترمذي موقوفًا على عمار بن زيد ، وقال : هذا أصح . وصححه الألباني في صحيح الترغيب .
- (٤) هو اللسان . واللحيان : العظمان اللذان ينبت عليهما الأسنان ، وما بين رجليه : أي الفرج .
- (٥) ذرب اللسان : جدته ، يُقال: ذرب لسان الرجل يذرب إذا فسد ، وقيل : الذرب اللسان : هو الحاد اللسان .
- (٦) وفي رواية : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على جدته » . رواه أبو يعلى في مسنده ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥ .
- (٧) صحيح : رواه أحمد والترمذي ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٦٢٤٣ .

وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « والذي لا إله غيره ؛ ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان » .
وعن أسلم ؛ أن عمر رضي الله عنه دخل يوماً على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه ، فقال عمر : مه ، غفر الله لك . فقال له أبو بكر : إن هذا أوردني بشرّ الموارد .

أقسام الكلام :

« ويدلُّك على فضل الصمت أمرٌ ، وهو أن الكلام أربعة أقسام :

- ١ - قسم هو ضررٌ محض . ٢ - وقسم هو نفع محض .
- ٣ - وقسم هو ضررٌ ومنفعة . ٤ - وقسم ليس فيه ضررٌ ولا منفعة .

أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر .

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ؛ فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي رُبع ، وهذا الربع فيه خطرٌ ؛ إذ يمتزج بما فيه إثمٌ ؛ من دقيق الرياء والتصنع والغيبة وتركية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركُه ، فيكون الإنسان به مخاطراً .
ومن عرّف دقائق آفات اللسان ، علِمَ قطعاً أن ما ذكره ﷺ هو فصلُ الخطاب ؛ حيث قال : « من صمت نجاً » . فلقد أُوتي - والله - جواهر الحكم ، وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء ^(١) .

الصمت يُعلِّمُ : وهاك أمثلة من حياة الطيّين :

مورّق العجلي :

قال رحمه الله : تعلّمتُ الصمتَ في عشر سنين ، وما قلتُ شيئاً قطُّ

(١) الإحياء ١٢١/٣ .

إذا غضبتُ ، أندمُ عليه إذا زال غضبي^(١) .
 « قيل : أقام المنصور بن المعتزُ لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة ،
 أربعين سنة »^(٢) .

إبراهيم بن أدهم :

قال أبو إسحاق الفزاري : كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يُطيل السكوت ،
 فإذا تكلم ربّما انبسط . قال : فأطال ذات يوم السكوت ، فقلتُ : لو تكلمتُ ؟
 فقال : الكلام على أربعة وجوه : فمن الكلام كلامٌ ترجو منفعته ، وتحشى
 عاقبته ، والفضل في هذا : السلامة منه . ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته
 ولا تحشى عاقبته ، فأقلُّ ما لك في تركه خِفةُ المؤنة على بدنك ولسانك . ومن
 الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا قد كفي العاقلُ مؤنته . ومن
 الكلام كلامٌ ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا الذي يجب عليك نشره . قال
 خلف بن تميم : فقلتُ لأبي إسحاق : أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام ؟ قال :
 نعم^(٣) .

عن أمّ حبيبة زوج النبي ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « كل كلام
 ابن آدم عليه لا له ، إلا أمرٌ بمعروف ، أو نهْيٌ عن منكر ، أو ذكرُ الله »^(٤) .
 وقال محمد بن النضر الحارثي : كان يُقال : كثرة الكلام تذهب بالوقار .
 وعن بكر بن ماعز ، عن الربيع بن خثيم رحمه الله قال : يا بكر بن ماعز ،

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٣ - ٣٥٥ .

(٢) الإحياء ١٢١/٣ .

(٣) الصمت وحفظُ اللسان لابن أبي الدنيا - تحقيق : د . محمد أحمد عاشور ، ص ٥٠ -
 دار الاعتصام .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ،
 وصحيح الترمذي ، وصحيح ابن ماجه .

أخزن عليك لسانك ، إلا مما لك ولا عليك .

الربيع بن خثيم : لا يتكلم بكلام الدنيا عشرين سنة :

قال إبراهيم التيمي : أَخْبَرَنِي مَنْ صَحِبَ الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ عَشْرِينَ سَنَةً ، فلم يتكلم بكلام لا يصعد^(١) .

وعن أبي حيان التيمي ، عن أبيه قال : ما سمعتُ الربيع بن خثيم يذكر شيئاً من أمر الدنيا قط .

قال الغزالي : « قيل : ما تكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً ، فكل ما تكلم به كتبه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء »^(٢) .

إبراهيم التيمي : لا يخوض في شيء من أمر الدنيا :

قال العوام بن حوشب : ما رأيتُ إبراهيم التيمي رافعاً رأسه إلى السماء في الصلاة ولا في غيرها ، ولا سمعته قط يخوض في شيء من أمر الدنيا^(٣) .

« وعن أبي عبيد قال : ما رأيتُ رجلاً قط أشدَّ تحفظاً في منطقه من عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه .

وقال رجل من « تيم الله » ، وكان قد جالس الشعبي وإبراهيم ، قال : ما رأيتُ أحداً أملك للسانه من طلحة بن مُصَرِّف .

وقال ميمون بن سياه : ما تكلمتُ بكلمة منذ عشرين سنة ، لم أتدبرها قبل أن أتكلّم بها ، إلا ندمتُ عليها ، إلا ما كان من ذكر الله .

(١) الصمت لابن أبي الدنيا ص ٥٠ .

(٢) الإحياء ١٢١/٣ .

(٣) الصمت وحفظ اللسان ص ٢١٩ .

وقال كعب : قلة المنطق حُكم عظيم ، فعليكم بالصمت ؛ فإنه رعة حسنة ، وقلة وزر ، وخفة من الذنوب ^(١) .

عبد الملك بن أبجر :

قال عنه الثوري : هو من الأبرار . وعده في خمسة بالكوفة يزدادون كل يوم خيراً .

« قال الصلت بن بسطام التيمي : قال لي أبي : الزم عبد الملك بن أبجر ، فتعلم من توقيه للكلام ، فما أعلم بالكوفة أشد تحفظاً للسانه منه .

وقال أبو خالد الأحمر عن مسعر بن كدام : لم يكن في أترابه أطول صمتاً منه . يعني مسعراً .

وقال سفيان بن عيينة : طول الصمت مفتاح العبادة .

وقال أرطاة بن المنذر : تعلم رجل الصمت أربعين سنة ، بحصاة يضعها في فيه ، لا ينزعها إلا عند طعام أو شراب أو نوم .

وقال الفضيل بن عياض : كان بعض أصحابنا يحفظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة .

وعن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس في سفر ، فنزل منزلاً ، فقال لغلامه : اثنتا بالسفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزمها ، إلا كلمتي هذه ، فلا تحفظوها علي .

وقال جابر لضيغم بن مالك : ما سمعت أبا مالك يذكر من الشعر إلا

(١) الصمت ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ورعة : مأخوذة من الورع وهو الكف عن الفحش وسوء الأدب .

بيتًا واحدًا :

قَدْ يَخْزَنُ الْوَرَعُ التَّقِيَّ لِسَانَهُ حَذَرَ الْكَلَامِ وَإِنَّهُ لَمُفَوَّهٌ ^(١)
 « قال مالك بن دينار : لو كُلِّفَ الناسَ الصَّحْفُ ، لَأَقْلَوْا المنطق .
 وقال الحسن بن حُيي بن صالح : إني لَأَعْرِفُ رجلًا يَعُدُّ كلامه . وكانوا
 يرون أنه هو .

وقال محارب : صحبنا القاسم بن عبد الرحمن ، فَعَلَبْنَا بطول الصمت ،
 وسخاء النفس ، وكثرة الصلاة .

وعن الأعمش ، عن إبراهيم قال : كانوا يجلسون ، فأطولهم سكونًا :
 أفضَلُهم في أنفسهم .

وقال فضيل بن عياض رحمه الله : ما حجَّ ، ولا رباطٌ ، ولا اجتهاد ،
 أشدَّ من حبس اللسان ، ولو أَصْبَحْتَ يُهْمُكَ لِسَانُكَ ، أَصْبَحْتَ في غَمٍّ شديد .
 وقال رحمه الله : سَجَنُ اللِّسَانِ سَجَنُ الْمُؤْمِنِ ، وليس أحدٌ أشدَّ غَمًّا ممَّنْ
 سَجَنَ لِسَانَهُ .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : إذا رأيتَ الرجل يُطِيلُ الصَّمْتَ ويهرب
 من الناس ، فاقترَبوا منه ؛ فإنه يُلْقِنُ الحكمة .

وقيل لداود المديني - من أهل مرو - : لِمَ لا تتكلَّم ؟ فسكت طويلاً ،
 ثم رفع رأسه ، كأنه غائب ، فقيل له : ألا تتكلَّم ؟ قال : أنتظر رسولَ ربِّ
 العالمين ، وأنا مفكِّرٌ في الجواب ، فالذي يكون مشغولاً بذلك كيف يقدر أن
 يتكلَّم ؟!

وقال رجلٌ لعبد الله بن المبارك - رحمه الله - : ربِّما أردتُ أنْ أَتَكَلَّمَ
 بكلام حسن ، أو أَحدِّثَ بمحدث فأسكتُ ، أريدُ أنْ أَعُوذَ نفسي السكوت .
 قال : تُوجِرُ في ذلك وتَشْرُفُ به ^(٢) .

(١) الصمت ص ٢٢٠ - ٢٢٥ .

(٢) الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

وقال عبد الله بن أبي زكريا : « عالجْتُ الصمتَ عشرين سنة ، فلم أقدر منه على ما أريد »^(١) .

« وعن مسلم بن زياد قال : كان عبد الله بن أبي زكريا ، لا يكاد أن يتكلم ، حتى يُسأل ، وكان من أبشَّ الناس وأكثرهم تبسُّمًا .

وعن الوليد بن سليمان بن السائب : كان عبد الله بن أبي زكريا إذا خاض جلساؤه في غير ذِكر الله ، رأيته كالساهي ، فإذا خاضوا في ذِكر الله ، كان أحسن الناس استماعًا »^(٢) .

قال الحكماء : الصمتُ على خمس : على علمٍ ، وحِلْمٍ ، وعِيٍّ ، وجهلٍ ، وعظيمة !!

وقال سعيد بن عبد العزيز : كان عبد الرحمن أخو أبي مخرمة يمكث أربعة أشهر لا يُكلم الناس ، وإذا أراد حاجةً كتب إلى أهله : افعلوا كذا وكذا^(٣) .

وعن خاقان بن عبد الله قال : سمعتُ ابن المبارك ، وسُئِلَ عن قول لقمان لابنه : « إِنْ كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فَضَّةٍ ، فَإِنَّ الصَّمْتَ مِنْ ذَهَبٍ ؟ » ، فقال عبد الله : لو كان الكلام بطاعة الله من فضة ؛ فإن الصمت عن معصية الله من ذهب .

عبد الله بن عون :

قال خارِجة بن مصعب : « صحبتُ ابن عَوْنِ ثنتي عشرة سنة ، فما رأيته تكلم بكلمة كتبها عليه الكِرَامُ الكَاتِبُونَ »^(٤) .

وعند الذهبي في السير (٣٦٦/٦) : قال خارِجة بن مصعب : صحبتُ

(١) الحلية ١٤٩/٥ .

(٢) الصمت ص ٣٠٥ .

(٣) الصمت ص ٣٠٨ .

(٤) الصمت وحفظ اللسان ص ٣١٢ .

ابن عون أربعاً وعشرين سنة ، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكهم للسانه .

كَفَّ اللِّسَانِ عَنْ حَصَائِدِهِ وَآفَاتِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ :

عن عبد الله بن مسعود قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أكثر خطايا ابن آدم في لسانه » ^(١) .

وعن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَنْ جَاهَدَ نفسه في طاعة الله » ^(٢) .

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل » ^(٣) .

وقال ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلاماً : مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيماناً : أحسنهم خُلُقاً ، وأفضل المهاجرين : من هجر ما نهى الله تعالى عنه ، وأفضل الجهاد : مَنْ جاهد نفسه في ذات الله عز وجل » ^(٤) .

واللسان مَجْمَعُ الأهواء ، وجهاده من أشقَّ الجهاد ، وجهاد النفس أصعب من جهاد البدن ؛ لأن البدن مأمور ، والنفس أمارة بالسوء .

(١) صحيح : جزء من حديث أخرجه الطبراني وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٤ .

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٤٩ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي ، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٤٩٦ .

(٤) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير وابن نصر نحوه في « الصلاة » وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٤٩١ .

قال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى ، حفظ اللسان أشدُّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم .

عالي الهمة مظهر لسانه عن حصاده وآفاته :

وعالي الهمة في حفظ لسانه .. يعرف آفات اللسان جليلها ودقائقها .. يعرف حصاد الألسن فيظهر لسانه منه .. ويواعد لسانه عنها بُعد ما بين المشرق والمغرب .

عالي الهمة لا يتكلم فيما لا يعنيه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(١) .

« وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ؛ فإن من أكثر ذكر الموت ، رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه » .

فقد يتكلم المرء فيما هو مباح لا ضرر عليه فيه ، ولا على مسلم أصلاً ، إلا أنه يتكلم بما هو مستغني عنه ولا حاجة به إليه ، فهو بهذا مضيع به زمانه ، وهو محاسب على عمل لسانه ، ومستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؛ لأنه لو صرف زمان الكلام إلى الفكر ، ربّما كان يفتح له من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هلل الله سبحانه وذكره وسبّحه ، لكان خيراً له ، فكم من كلمة يبنى بها قصرًا في الجنة ، واللسان شبكة يقدر أن يقتنص

(١) صحيح : رواه الترمذي . وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد ، والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، والحاكم في الكنى ، عن أبي بكر الشيرازي وعن أبي ذر ، والحاكم في تاريخه عن علي ، والطبراني في الصغير عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث بن هشام ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٨٧ .

بها الحُورُ العِين ، فأِهْماله ذلك وتَضْييعه : حُسْرَانٌ مُبِين ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ كَنْزًا مِنَ الْكُنُوزِ فَأَخَذَ مَكَانَهُ مَدْرًا لَا يَنْتَفِعُ بِهَا ، كَانَ خَاسِرًا حُسْرَانًا مُبِينًا .
وَحَدُّ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ : أَنْ تَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَوْ سَكَتَ عَنْهُ ، لَمْ تَأْتِمْ وَلَمْ تَسْتَضَرَّ بِهِ فِي حَالٍ وَلَا مَالٍ .

مثاله : أَنْ تَجْلِسَ مَعَ قَوْمٍ ، فَتَذَكَّرَ لَهُمْ أَسْفَارَكَ وَمَا رَأَيْتَ فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَنْهَارٍ ، وَمَا وَقَعَ لَكَ مِنَ الْوَقَائِعِ ، وَمَا اسْتَحْسَنْتَهُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالثِّيَابِ ، فَأَنْتَ إِذَا بَالَغْتَ فِي الْجِهَادِ حَتَّى لَا يَمْتَزِجَ بِحِكَايَتِكَ زِيَادَةٌ وَلَا نَقْصَانٌ ، وَلَا تَرْكِيَةٌ نَفْسٍ - فَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ مُضَيِّعٌ لَزَمَانِكَ ، وَأَنْتَى تَسْلُمُ مِنَ الْآفَاتِ ؟ ! .

وَمِنْ جَمَلَتِهَا : أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَكَ عَمَّا لَا يَعْنِيكَ ؛ فَأَنْتَ بِالسُّؤَالِ مُضَيِّعٌ وَقَتَكَ ، وَقَدْ أَلْجَأْتَ صَاحِبَكَ بِالْجَوَابِ إِلَى التَّضْيِيعِ ، هَذَا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ مِمَّا يَنْطَرِّقُ إِلَى السُّؤَالِ عَنْهُ آفَةٌ ، وَأَكْثَرُ الْأَسْئَلَةِ فِيهَا آفَاتٌ ؛ فَإِنَّكَ تَسْأَلُ غَيْرَكَ عَنْ عِبَادَتِهِ مَثَلًا ، فَتَقُولُ لَهُ : هَلْ أَنْتَ صَائِمٌ ؟ فَإِنْ قَالَ : نَعَمْ . كَانَ مَظْهَرًا لِعِبَادَتِهِ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ الرِّيَاءُ ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ سَقَطَتْ عِبَادَتُهُ مِنْ دِيْوَانِ السَّرِّ ، وَعِبَادَةُ السَّرِّ تَفْضُلُ عِبَادَةِ الْجَهْرِ بِدَرَجَاتٍ . وَإِنْ قَالَ : لَا . كَانَ كَاذِبًا ، وَإِنْ سَكَتَ كَانَ مُسْتَحَقَّرًا لَكَ وَتَأَذُّيْتُ بِهِ ، وَإِنْ اِحْتَالَ لِمُدَافَعَةِ الْجَوَابِ افْتَقَرَ إِلَى جَهْدٍ وَتَعَبٍ فِيهِ ، فَقَدْ عَرَّضْتَهُ بِالسُّؤَالِ : إِمَّا لِلرِّيَاءِ أَوْ لِلْكَذِبِ أَوْ لِلْاِسْتِحْقَارِ أَوْ لِلتَّعَبِ فِي حِيلَةِ الدَّفْعِ ، وَكَذَلِكَ سَوَالُكَ عَنْ سَائِرِ عِبَادَاتِهِ « (١) .

«عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: خَمْسٌ؛ لَهْنٌ أَحْسَنُ مِنَ الدُّهْمِ الْمُؤَقَّفَةِ : لَا تَتَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ ، فَإِنَّهُ فَضْلٌ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ الْوَزَرَ . وَلَا تَتَكَلَّمَ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّى تَجِدَ لَهُ مَوْضِعًا ؛ فَإِنَّهُ رُبَّ مَتَكَلِّمٍ فِي أَمْرِ يَعْنِيهِ ، قَدْ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَيَعْنَتُ . وَلَا تَمَارِ حَلِيمًا وَلَا سَفِيهًا ؛ فَإِنَّ الْحَلِيمَ يَقْلِيلُكَ ،

وإن السفية يُؤذيك . واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به ، واعفه عما تحب أن يعفبك منه . واعمل عمل رجل يرى أنه مُجازي بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام» ^(١) .

وقال مُورق العجلي : « أمر أنا أطلبه منذ عشر سنين ، لم أقدر عليه ، ولست ببارك طلبه .. قالوا : ما هو يا أبا المعتمر ؟ قال : الصمتُ عما لا يعنيني » ^(٢) .

« وقال أبو جعفر محمد بن علي : كفى عيباً أن يُصير العبدُ من الناس ، ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يُؤذي جليسه فيما لا يعنيه . وعن زيد بن أسلم قال : دُخل على ابن أبي دُجانة وهو مريض ، ووجهه يتهلل ، فقال : ما من عملي شيء أوثق في نفسي من اثنتين : لم أتكلم فيما لا يعنيني ، وكان قلبي للمسلمين سليماً » ^(٣) .

وعالي الهمة لا يخوض في فضول الكلام :

قال تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ... ﴾ [النساء : ١١٤] .
وقال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله » ^(٤) .

(١) الصمت وحفظ اللسان ص ٧٥ .

(٢) الزهد لأحمد ص ٣٠٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٣٥ بلفظ : « أن أقول ما لا يعنيني » . والصمت ص ٧٧ .

(٣) الصمت ص ٧٥ ، ٧٧ .

(٤) حسن : أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة ، والبيهقي من حديث ركب المصري ، وقال البغوي : لا أدري : أسمع من النبي ﷺ أم لا . وقال ابن منده : مجهول لا نعرف له صحبه . وقال ابن عبد البر : إنه حديث حسن .

وفضول الكلام مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمرٌ يُمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ، أي فضل عن الحاجة ، وهو أيضاً مذموم ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . وقال عطاء بن أبي رباح لمحمد بن سُوقة وجماعة : « يا بني أخي ، إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ، ما عدا كتاب الله ، أن تقرأه ، أو تأمر بمعروف ، أو تنهى عن منكر ، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتذكرون : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : ١٠ ، ١١] ، ... عن العيين وعن الشمال قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ [ق : ١٧ - ١٨] ؟! أما يستحي أحدكم ، أنه لو نشرت عليه صحيفته التي أملى صدرَ نهاره ، كان أكثر ما فيها ، ليس من أمر دينه ، ولا دُنياه » .

وقد مر بنا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه بلال بن الحارث : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » الحديث . وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه .

وعن الحسن قال : « يا ابن آدم ، بُسِطَتْ لك صحيفة ، ووُكِّل بك مَلَكَانِ كَرِيمَانِ يَكْتَبَانِ عَمَلَكَ ، فَأَكْثِرْ مَا شِئْتَ أَوْ أَقَلِّ » .

وكان رحمه الله يقول : « من كثر ماله كثرت ذُنُوبه ، ومن كثر كلامه كثر كَذِبُه ، ومن ساء خلقه عَذَّب نفسه » .

وكان طاووس يعتذر من طول السكوت ، ويقول : إني جَرَّبْتُ لساني فوجدته لثيماً راضِعاً^(١) .

(١) قال ابن الأعرابي : الراضع والرضيع : الخسيس من الأعراب ، الذي إذا نزل به الضيف رضع بفيه شاته ؛ لثلاً يسمعه الضيف فيطلب اللبن .

وعن الشعبي قال : ما من خطيب يخطب ، إلّا عُرِضَتْ عليه خطبته يوم القيامة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنه لَيَمْنَعُنِي من كثير الكلام ، مخافةُ المباهاة .
وكان الربيع بن خثيم يقول : لا خير في الكلام إلّا في تسع : تهليل ، وتكبير ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك من الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرُك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك للقرآن .

وقال إبراهيم التيمي : المؤمنُ إذا أراد أن يتكلّمَ نظر ، فإن كان كلامه له تكلّم ، وإلّا أمسك عنه ، والفاجر إنما لسانه رِسلًا رِسلًا^(١) .

عالي الهمة لا يخوض في الباطل :

قال الله تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ... ﴾ الآية [النساء : ١٤٠] .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجلَ ليتكلّمَ بالكلمةِ يُضْحِكُ بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا »^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجلَ ليتكلّمَ بالكلمة لا يرى بها بأسًا ، يهوي بها سبعين خريفًا في النار »^(٣) .

(١) أي : كان الكلام على لسانه سهلًا ومتهاونًا فيه .

(٢) سنده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة ، وحسنَّ سنده العراقي في تخریج الإحياء .

(٣) أخرجه الشيخان والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل »^(١) .

« والخوض في الباطل هو الكلام في المعاصي؛ كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق ؛ فإنَّ كلَّ ذلك مما لا يحلُّ الكلام فيه وهو حرام . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنُّنها ، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها . ويدخل فيه الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وما جرى من قتال الصحابة ، على وجه يؤهم الطعن في بعضهم .

قال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمرُّ بمجلسٍ لهم فيقول لهم : توضعوا ؛ فإن بعض ما تقولون شرٌّ من الحدِّث »^(٢) .

وعالي الهمة أبعدُ الناس عن المراء والجدال :

عن أبي أمانة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببَيْتٍ في رَبَضِ الجنة لمن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببَيْتٍ في وَسْطِ الجنة لمن تَرَكَ الكَذِبَ وإن كان مازِحًا ، وببَيْتٍ في أَعْلَى الجنة لمن حَسَنَ خُلُقَهُ »^(٣) .
وقال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلا أوتوا الجدل »^(٤) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسندٍ صحيح ، كما قال العراقي في تخریج الإحياء .

(٢) الإحياء ١٢٥/٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمانة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ ، وصحَّحه في السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٣ .

(٤) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي أمانة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٩ .

وقال ﷺ : « المراء في القرآن كُفْرٌ » ^(١) .

وقال أبو الدرداء : كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً .

وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عُرضَةً للخصومات أكثر التنقل .

وحدّ المراء هو : كلّ اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إمّا في اللفظ ، وإمّا في المعنى ، وإمّا في قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض ، فكلّ كلام سمعته ؛ فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين ، فاسكت عنه .

وأما المجادلة ؛ فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه .

قال أبو حنيفة لداود الطائي : لِمَ آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال . فقال : احضر المجالس واستمع ما يُقال ، ولا تتكلم . قال : ففعلت ذلك ، فما رأيت مجاهدة أشدّ عليّ منها .

وعن محمد بن واسع قال : رأيت صفوان بن مُحَرِّز في المسجد ، وقرياً منه ناس يتجادلون ، فرأيتهم قام فنفض ثيابه ، وقال : إنما أنتم جَرَبٌ ، إنما أنتم جَرَبٌ .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا سمعت المراء فاقصد .

وسمع الربيع بن خثيم رجلاً يُلاحِي رجلاً ، فقال : مه !! لا تَلْفِظْ إلّا بخير ، ولا تقل لأخيك إلّا ما تحب أن تسمعه من غيرك ؛ فإن العبد مسئول عن لفظه محصى عليه ذلك كله ؛ ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : ٦] .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « خرجت لأخبركم ببليّة القدر ، فتلاحى فلان وفلان فُرفعت ، وعسى أن

(١) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم ، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح

يكون خيرًا لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » . رواه البخاري .

وعالي الهمة لا يخاصم :

والخصومة وراء الجدال والمراء ، وهي لجاج في الكلام يُستوفى به مأل أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضًا ، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » . رواه البخاري .

وقال أبو جعفر محمد بن علي : إياكم والخصومة ؛ فإنها تمحق الدين . وقال رحمه الله : لا تجالسوا أصحاب الخصومات ؛ فإنهم يخوضون في آيات الله .

وعن فضيل ؛ قال إبراهيم : ما خاصمت ؟ قلت : لا .. قال : قط ؟ قلت : قط .

وأقل ما يفوته في الخصومة طيب الكلام ، والله تعالى يقول : ﴿ وقولوا للناس حسنًا ﴾ .

قال ابن عباس : لو قال لي فرعون خيرًا ، لرددت عليه .

والكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح .

قال بعض الحكماء : كل كلام لا يُسَخِّطُ رَبَّكَ إلا أنك تُرضي به جليستك ، فلا تكن به عليه بخيلًا ؛ فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين^(١) .

وعالي الهمة أبعُد الناس عن التفرُّر في الكلام والتشدُّق فيه وتكلف السَّجْع :

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « هلك المتطعون » .

قالها ثلاثاً . رواه مسلم .

والمتنطعون هم المبالغون في الأمور ، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم . وقال رسول الله ﷺ : « سيكون قوم يأكلون بألسنتهم ، كما تأكل البقرة من الأرض »^(١) .

وقال ﷺ : « إن الله عز وجل يُبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها »^(٢) .

وعن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؛ أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة ؛ الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون » . قالوا : قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفهبون ؟ قال : « المتكبرون » .

وقال ﷺ : « إن من شرار أمتي الذين غُدُّوا بالنعيم ، الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ، يتشدقون بالكلام »^(٣) .

وعالي الهمة ليس بالفاحش ولا بالبذي :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبذي »^(٤) .
وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش في شيء إلا شأنه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه »^(٥) .

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢١ .

(٣) أخرجه أحمد في « الزهد » ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب من حديث فاطمة ، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٨٩١ .

(٤) رواه البخاري والترمذي والحاكم وابن حبان .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والبخاري في الأدب ، وابن =

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ، ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شمنتُ رائحة قطُّ ، أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أف ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا !! » . متفق عليه .

وعند الترمذي : « وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقًا ، وما مسستُ خزًا قطُّ ولا حريرًا ولا شيئًا ، كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شمنتُ مسكًا قطُّ ولا عطرًا ، كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ » . وعن أبي عبد الله الجدلي قال : سألتُ عائشة عن خلقِ رسول الله ﷺ ، فقالت : « لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ، ولا صَحَابًا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » ^(١) .

لم يكن فاحشًا : أي ذافحش . ولا متفحشًا : أي متكلفًا فيه ومتعمدًا . قال القاضي : نفث عنه تولي الفحش والتفوّه به ، طبعًا وتكلفًا . وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يُغض الفاحش المتفحش » ^(٢) . عن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : كنتُ عند النبي ﷺ قاعدًا وأبي أمامي ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الفُحشَ والتفحُّشَ ليسا من الإسلام في شيء ، وإنَّ أحسنَ الناسَ إسلامًا أحاسنُهُم أخلاقًا » ^(٣) .

= حبان عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(١) صحيح : رواه الترمذي في سننه وفي الشمائل ، والطيايسي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ١٦٤٠ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أسامة بن زيد ، وأحمد وابن حبان عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٧٣ ، والإرواء ٢١٩٢ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد في مسنده ٨٩/٥ ، وابن أبي الدنيا في الصمت ، =

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوئ الداء : اللسانُ البذيء ،
والخلقُ الدنيء .

فهذه مذمةُ الفُحْش .

فأما حُدُّه وحقيقته : فهو التعبير عن الأمور المستقبَّحة بالعبارات
الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلَّق به ؛ فإن لأهل الفساد
عباراتٍ صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل
يُكنون عنها ويدلُّون عليها بالرموز ، فيذكرون ما يقاربها ويتعلَّق بها .

قال ابن عباس : إن الله حيُّ كريم يعفو ويكنو ؛ كنَى باللمس عن
الجماع .

فالمسيس واللمس والدخول والصُّحبة : كنايةات عن الوقاع ، وليست
بفاحشة . وليس يختصُّ هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول
والغائط ، أولى من لفظ التغوط والخراء ، فإن هذا أيضاً ممَّا يخفى ، وكلُّ ما
يخفى يُستحيًا منه ، فلا ينبغي أن تُذكر ألفاظه الصريحة ؛ فإنه فُحْش .

وكذلك يُستحسن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يُقال : قالت
زوجتك كذا ، بل يُقال : قيل في الحجرة ، أو مِن وراء الستر ، أو قالت أمُّ
الأولاد ؛ فالتلطف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يُفضي إلى
الفُحْش .

وكذلك من به عيوب يُستحي منها ، فلا ينبغي أن يُعبّر عنها بصريح
لفظها ، كالبرص والقرع والبواسير ، بل يُقال : العارض الذي يشكوه ، وما
يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفُحْش ، وجميع ذلك من آفات
اللسان .

«قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقته ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيته نساءه لنرى ما يقول ؟ فقال : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد »^(١) .

وعالي الهمة أبعد الخلق عن السب واللغو :
أما السب :

قال رسول الله ﷺ : « من سب أصحابي ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . متفق عليه .

وفي الحديث : «... وإن امرؤ سبك بما يعلم فيك ، فلا تسبه بما تعلم فيه ، فإن أجره لك ، ووباله على من قاله »^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبي ﷺ برجل قد شرب^(٤) قال : « اضربوه » . قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بنبغله ، والضارب بثوبه ، فلما انصرف ، قال بعض القوم : أخزأك الله . قال : « لا تقولوا هذا ، لا تُعينوا الشيطان عليه » . رواه البخاري .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربى

(١) الإحياء ص ١٣١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٣٤٠ .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد ، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم ١٣٥٢ .

(٤) أي الخمر .

الرَّبَا : شَتَمُ الأَعْرَاضِ «^(١) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثناون وسبعون باباً ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإنَّ أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »^(٢) .

انظر إلى أدنى الربا وأعلاه .. واتق الله .. ما عسى يكون الأكبر إذا كان الأدنى بمثل هذه الصورة المستفدرة !!؟

وقال ﷺ : « سَابُّ الْمُسْلِمِ كَالْمُشْرِفِ عَلَى الْهَلَكَةِ »^(٣) .

وقال ﷺ : « لَا تُؤْذُوا مُسْلِمًا بِشْتَمٍ كَافِرٍ »^(٤) .

وقال ﷺ : « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا »^(٥) .

وقال ﷺ : « الْمُسْتَبْتَانِ شَيْطَانَانِ ، يَتَهَاتِرَانِ وَيَتَكَاذِبَانِ »^(٦) .

بل ولسان عالي الهمة مطهر عن السبِّ مطلقاً ؛ سبِّ الدَّابَّةِ ، وسبِّ الرِّيحِ ، وسبِّ الديك ، وسبِّ الدهر ، وسبِّ الحُمَى ، بل وسبِّ الشيطان ،
(١) صحيح : رواه الهيثم بن كليب عن سعيد بن زيد ، ورواه عبد الرزاق في الجامع ، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن عثمان مرسلًا ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٤٣٣ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٨٧١ ، وصحيح الجامع رقم ٣٥٣١ .

(٣) حسن : رواه البزار عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٨٦ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في السنن عن سعيد بن زيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٩١ . (٥) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن عائشة .

(٦) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب عن عياض بن حمار ، وصحَّحه الألباني في « الإيمان » لأبي عبيد ، وصحيح الجامع رقم ٦٦٩٦ .

وسبَّ آلهة الزُّور .

عن عمران بن الحُصين رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأة من الأنصار على ناقة ، فضجرت فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « خذوا ما عليها ودعوها ؛ فإنها ملعونة » . قال عمران : فكأنني أراها الآن تمشي في الناس ، ما يعرض لها أحد . رواه مسلم .

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم ، إذ بُصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل ، فقالت : حلّ^(١) ، اللهم العنّها . فقال النبي ﷺ : « لا تصاحبنا ناقةٌ عليها لعنة » . رواه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الريح من روح الله ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبّوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرّها »^(٢) .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبّوا الديك ؛ فإنه يُوقظ للصلاة »^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تسبّوا الدهر ، فإن الله هو الدهر »^(٤) . رواه مسلم .

(١) حلّ : كلمة تُقال لزجر الإبل .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود ، وابن ماجه ، وهو في الكلم الطيب برقم ١٥٣ ، صحّحه الألباني .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده صحيح ، صحّحه الألباني في المشكاة برقم ٤١٣٦ .

(٤) قال النووي في شرح مسلم : « أي : لا تسبّوا فاعل النوازل ؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها ، وقَعَ السبُّ على الله تعالى ؛ لأنه هو فاعلها ومنزلّها ، وأما الدهر الذي هو =

وعن جابر رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب - أو أم المسيب - فقال : « ما لك يا أم السائب - أو يا أم المسيب - ترفزين^(١) ؟ » . قالت : الحمى ، لا بارك الله فيها . فقال : « لا تسبي الحمى ؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد »^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره »^(٣) .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾ الآية [الأنعام : ١٠٨] .

وثبت عن علي رضي الله عنه ؛ أنه سئل عن قول الرجل للرجل : « يا فاسق » ، « يا خبيث » ، قال : « هُنَّ فواحش ، فيهنَّ تعزير ، وليس فيهنَّ حدٌ »^(٤) .

وَأَمَّا اللَّعْنُ :

فقد قال رسول الله ﷺ : « إني لم أبعث لَعَّائًا »^(٥) .

وقال ﷺ : « إني لم أبعث لَعَّائًا ، وإنما بُعِثْتُ رحمة »^(٦) .

= الزمان فلا فعل له ، بل هو مخلوق من جملة خلق الله ، ومعنى : « فإن الله هو الدهر » : أي فاعل النوازل والحوادث ، وخالق الكائنات . والله أعلم .

- (١) ترفزين : أي ترتعدين .
- (٢) رواه مسلم ، والبخاري في « الأدب المفرد » .
- (٣) صحيح : رواه المخلص ، والديلمي ، وتَمَّام في فوائده ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٢٢ ، وصحيح الجامع رقم ٧١٩٥ .
- (٤) أخرجه البيهقي ، انظر : إرواء الغليل رقم ٢٣٩٣ .
- (٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن كريب بن أسامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٠١ .
- (٦) صحيح : رواه مسلم ، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا يكون المؤمن لعاناً » ^(١) .

وقال ﷺ : « أوصيك أن لا تكون لعاناً » ^(٢) .

وقال ﷺ : « لعنُ المؤمن كقتله » ^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً » . رواه مسلم .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء ، فتعلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتعلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإذا لم تجد مساعاً ؛ رجعت إلى الذي لعن ؛ فإن كان لذلك أهلاً ، وإلا رجعت إلى قائلها » ^(٤) .

« واللعن : إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكل ذلك مذموم .
والصفات المقتضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب :
الأولى : اللعن بالوصف الأعم ؛ كقولك : لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه ؛ كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس . وعلى القدرية والخوارج والرافضة ، أو على الزناة والظلمة

(١) صحيح: رواه الترمذي والبخاري في الأدب عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٧٤ .

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير عن جرهموز بن أوس وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٤٢ .

(٣) جزء من حديث ، متفق عليه ، عن ثابت بن الضحّاك .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وروى أحمد نحوه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » برقم ٤٠٩٩ .

وأكلي الربا . وكل ذلك جائز .

الثالثة : اللعن للشخص المعين ؛ وهذا فيه خطر ؛ كقولك : زيد لعنه الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع .

والتفصيل فيه أن كل شخص ثبت لعنته شرعاً فتجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر ، وعُرف ذلك شرعاً . وأما شخص بعينه في زماننا ؛ كقولك : زيد لعنه الله - وهو يهودي مثلاً - فهذا فيه خطر ؛ لأنه ربما يُسلم فيموت مقرباً عند الله ، فكيف يُحكم بكونه ملعوناً ؟!

فإن قلت : يلحق بكونه كافراً في الحال ، كما يقال للمسلم : رحمه الله ؛ لكونه مسلماً في الحال ، وإن كان يُتصور أن يرتد .

فاعلم أن معنى قولنا : رحمه الله ؛ أي ثبت الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة ، وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يُقال : ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة ؛ فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائز أن يُقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ، ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر ، فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلحق الأعيان فيه خطر ؛ لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ ، فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عيّن قوماً باللحن ، فكان يقول في دعائه على قريش : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة »^(١) . وذكر جماعة قتلوا على الكفر ، حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه ، فنهى عنه ؛ إذ إنّه كان يلحق الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في

(١) متفق عليه ، من حديث ابن مسعود .

قنوته شهراً ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ^(١) . يعني أنهم ربما يُسَلِّمُونَ ، فَمِنْ أَيْنَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلْعُونُونَ ؟!

كذلك مَنْ بَانَ لَنَا مَوْتُهُ عَلَى الْكُفْرِ جَازَ لَعْنُهُ ، وَجَازَ ذَمُّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَذًى عَلَى مُسْلِمٍ ، فَإِنْ كَانَ ؛ لَمْ يَجُزْ ... شَرِبَ نَعْمَانُ الْخَمْرَ فَحَدَّ مَرَّاتٍ فِي مَجْلَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : لَعْنَهُ اللَّهُ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ !! فَقَالَ ﷺ : « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكَ » . فَهَاءُ عَنْ ذَلِكَ ^(٢) ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَعْنَ فَاسِقٍ بَعِينُهُ غَيْرُ جَائِزٍ .

وعلى الجملة : ففي لعن الأشخاص خطرٌ فليُجْتَنَّبَ ، وَلَا خَطَرَ فِي السَّكُوتِ عَنْ لَعْنِ إِبْلِيسَ مِثْلًا ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ .
وَالْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِلَعَّانٍ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَقَ اللِّسَانُ بِاللَّعْنَةِ إِلَّا عَلَى مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ أَوْ عَلَى الْأَجْنَاسِ الْمَعْرُوفِينَ بِأَوْصَافِهِمْ ، دُونَ الْأَشْخَاصِ الْمَعْيَنِينَ .

(١) حديث : أَنَّهُ كَانَ يَلْعَنُ الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بَثْرَ مَعُونَةٍ فِي قَنَوْتِهِ شَهْرًا ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ : دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بَثْرَ مَعُونَةٍ ثَلَاثِينَ صَبَاحًا .. الْحَدِيثُ . وَفِي رَوَايَةٍ لُهُمَا : « قَتَنَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رَعْلٍ وَذَكَوَانٍ .. » .. الْحَدِيثُ . وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : « وَكَانَ يَقُولُ حِينَ يَفْرَغُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْقِرَاءَةِ ، يَكْبُرُ وَيَرْفَعُ رَأْسَهُ ... : « اللَّهُمَّ الْعَنُ لِحْيَانِ وَرَعْلَانِ .. » الْحَدِيثُ . وَفِيهِ : « ثُمَّ بَلَّغْنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ » . لَفْظُ مُسْلِمٍ .

(٢) للبخاري من حديث عمر : أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ ، وَكَانَ يَلْقَبُ : حَمَارًا ، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللَّهُمَّ الْعَنَهُ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ !! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ » .

قال مكّي بن إبراهيم : كُنّا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبي بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه ، وابن عون ساكت ، فقالوا : يا ابن عون ، إنما نذكره لِمَا ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ، ولَعَنَ اللهَ فلائًا ؛ فَلَأَن يُخْرَجَ مِن صحيفتي : لا إله إلا الله ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا : لَعَنَ اللهَ فلائًا .

ويقرب مِنَ اللَّعْنِ : الدعاءُ على الإنسان بالشرِّ ، حتى الدعاء على الظالم ، كقول الإنسان مثلاً : لا صَحَّحَ اللهُ جِسْمَهُ ، ولا سَلَّمَهُ . وما يجري مجراه ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ ^(١) .

وَعَالِي الْهِمَّةِ يَنْذُرُ مِنْهُ الْمَزَاحَ ، وَيَتَّبِعُ هَدْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهِ :

لقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، لكنّه لا يقول إلّا حقًا ، ولا ينطق إلّا صدقًا ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، إنك تُدَاعِبُنَا ؟ قال : « نعم ، غير أني لا أقول إلّا حقًا » ^(٢) .

ولكنّ هذا على سبيل النادرة ، فقد كان النبي ﷺ كما وصفه جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : « كان طويلَ الصَّمْتِ ، قليلَ الضَّحْكِ » ^(٣) . وكثرة المزاح والإفراط فيه تؤدّي إلى كثرة الضحك ، وقد قال ﷺ : « لا تُكثِرِ الضَّحْكَ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تُمِيتِ الْقَلْبَ » ^(٤) .

(١) الإحياء ٣ / ١٣٢ - ١٣٥ .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » ، وصحّحه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية برقم ٢٠٢ .

(٣) حسن : رواه أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٩٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٠٦ .

أما المزاح الكثير ، فلا وألف لا ؛ فقد شاب عليه الناس ، وكأنهم قد رضعوه في المهد ، وفي مصائب الأمة ما يُغني عنه .

«فإن قلت: قد نُقِلَ المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فكيف يُنهي عنه ؟

فأقول : إن قَدَرْتَ على ما قَدَّرَ عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلَّا حقًّا ، ولا تُؤذي قلبًا ، ولا تفرط فيه ، وتقتصر فيه أحيانًا على النذور - فلا حَرَجَ عليك ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفةً يواظب عليه ويُفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل رسول الله ﷺ ، وهو كمن يدور نهاره مع الزُّنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ ؛ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا» (١) .

قال خالد بن صفوان : المَزاح سبَاب التَّوَكَّى . قال : وكان يُقال لكل شيء بذر ، وبذرُ العداوة المزاح .

وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لي أُمِّي : لا تمازح الصبيان ، فتهون عليهم .

وقال الأحنف بن قيس : مَنْ كثر كلامه وضحكُه ومزاحه ، قلَّتْ هيئته .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مَنْ مَزَح ، اسْتُخِفَّ به .
وصدَّق رسول الله ﷺ ؛ إذ يقول : « لو تعلمون ما أعلم لُبِكُم كثيرًا ولَضَحِكُم قليلًا » (٢) .

(١) الإحياء ٣ / ١٣٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

وعالي الهمة متطهرٌ تمامًا عن بقيةِ حصائدِ الألسُن^(١):

- عالي الهمة لا يقرب هذه الحصائد ويطهر لسانه عنها . ومن هذه الحصائد :
- ١ - اليمينُ الكاذبة عمدًا . ٢ - شهادة الزور . ٣ - القذف .
 - ٤ - عدمُ الستر على المسلم . ٥ - البهتان والافتراء :
 - فلقد نظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة ، فقال :
ما أعظمَكَ وأعظمَ حُرْمَتَكَ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً منك .
 - ٦ - الكذب . ٧ - النجاسة . ٨ - الغيبة :

قال خُصيف ، وعبد الكريم بن مالك : أدركنا السلف ، وهم لا يرون
العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس .
وقال الحسن : والله للغيبة أسرعُ في دين المؤمن من الأكلة في جسده .
وقال عون بن عبد الله : ما أحسب أحدًا تفرغ لعيوب الناس ، إلَّا من
غفلة غفلها عن نفسه .

وكان سيّد القراء ميمون بن سياه لا يغتاب ، ولا يدع أحدًا عنده
يغتاب ؛ ينهيه ، فإذا انتهى وإلَّا قام^(٢) .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ للنبي - ﷺ - : حسبك من
صفية - زوج النبي ﷺ - كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال النبي ﷺ :
« لقد قلتَ كلمة لو مُزجتُ بماءِ البحرِ لَمَزَجَتْهُ »^(٣) .

(١) وقد أوردناها وأحسن وأطال وأطيب : الشيخ حسين العوايشة ، التلميذ النجيب
لمحدث العصر شيخنا الألباني ، في كتابه القيم : « حصائد الألسن » فلتراجع .

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص ١٣٨ .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما ، وصححه الألباني في تخريج أحاديث =

٩ - إفشاء السر . ١٠ - النفاق العملي لا الاعتقادي :

وهو أن يشابه عمل المسلم عمل المنافقين من غير استحلال له ، وما في ظاهره من نفاق ليس في باطنه ؛ إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا وعد أخلف .

لما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلي ابنتي رجل من قريش ، وقد كان مني شبه الوعد ؛ فوالله ؛ لا ألقى الله بثلاث النفاق ؛ أشهدكم أنني قد زوجته ابنتي .

١١ - السخرية والاستهزاء والتناؤز بالألقاب :

« قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلاً يرضع عتراً فضحكت منه ، لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع » .

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب ، لخشيت أن أحول كلباً^(١) .

قال عليه السلام : « ما أحب أني حكيت إنساناً ، وأن لي كذا وكذا »^(٢) .

قال المناوي : « (ما أحب أني حكيت إنساناً) : أي فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله ، منقصاً له . يقال : حكاه وحاكاه . قال الطيبي : وأكثر ما تستعمل المحاكاة في القبيح » .

١٢ - مقاطعة الكلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلوات الله عليه قال : « إذ قلت

= الحلال والحرام ، برقم ٤٢٧ .

(١) القرطبي ٩ / ٦١٤٥ .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح

أبي داود ، رقم ٤٠٨٠ .

للناس : أنصتوا . وهم يتكلمون ؛ فقد ألغيت على نفسك » ^(١) .

قال الألباني: « وفي هذا الحديث تحذير من الإخلال بأدب رفيع من آداب الحديث والمجالسة ، وهو أن لا يقطع على الناس كلامهم ، بل يُنصت هو حتى ينتهي كلامهم » .

١٣ - الغناء .

١٤ - أن يتحلّى أو يتشبع بما لم يُعطَ :
قال تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمّدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

وفي حديث أسماء : قال رسول الله ﷺ : « المتشبع بما لم يُعطَ ، كلابس ثوبي زور » ^(٢) .

والتشبع بما لم يُعطَ في أمور الآخرة أشدّ ذنبًا وأكثر إثماً ، كالإفتاء بغير علم ، ليظهر أنه عالم وأن علمه غزير .

١٥ - أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذَر . ١٦ - البيع على بيع أخيه . ١٧ - طلب الولاية ؛ فنعم المرضعة وبئست الفاطمة . ١٨ - التعيير والتوبيخ . ١٩ - الدعاء على النفس والأولاد والأموال . ٢٠ - الخيانة في النصيحة . ٢١ - احتقار المسلمين . ٢٢ - قول العبد : هذا من أهل الجنة ، وهذا من أهل النار ؛ والتألي على الله تعالى . ٢٣ - الطعن في الأنساب . ٢٤ - الفخر بالأنساب . ٢٥ - أن يدعي المرء إلى غير أبيه أو ينتمي إلى غير

(١) رواه أحمد ، وسنده صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في الصحيحة

برقم ١٧٠ .

(٢) متفق عليه .

مواليه . ٢٦ - الاستغفار للمشركين والكفار . ٢٧ - الفجور عند الخصام .
 ٢٨ - القول : إني بريء من الإسلام . ٢٩ - المنّ بالعطية . ٣٠ - الهزل
 بالنكاح والطلاق والرجعة والعِتق . ٣١ - سبُّ الأموات . ٣٢ - النياحة على
 الميت . ٣٣ - القول : تعال أقامرك . ٣٤ - القيل والقال . ٣٥ - البؤس والتبؤس .
 ٣٦ - مخاطبة المنافق بسيد ونحوه . ٣٧ - المدح في الوجه . ٣٨ - التريكة .
 ٣٩ - العودة في الصدقة . ٤٠ - لفظة « لو » . ٤١ - الحلف في البيع .

٤٢ - التحدث بتلعب الشيطان في المنام :

قال ﷺ : « لا يحدثن أحدكم بتلعب الشيطان به في منامه » ^(١) .

٤٣ - قول : تعس الشيطان . ٤٤ - التحلّم كاذبًا . ٤٥ - النذر
 في معصية الله . ٤٦ - قول : خبثت نفسي . ٤٧ - تسمية العنب كرمًا .
 ٤٨ - التكلم والإمام يخطب الجمعة . ٤٩ - نشد الضالة والبيع في المسجد .
 ٥٠ - قول : شاهنشاه ، للسلطان .

هذه بعضُ حصائد الألسن التي يبتعد عنها عالي الهمة ، ويطهر لسانه
 منها ، فضلًا عن :

٥١ - الفتوى بغير علم . ٥٢ - والنذر لغير الله تعالى . ٥٣ - دعاء
 غير الله تعالى . ٥٤ - الاستسقاء بالأنواء . ٥٥ - كفر النعمة . ٥٦ - سؤال
 الكُهان والعرفان . ٥٧ - الحلف بغير الله . ٥٨ - الاستعاذة بغير الله .
 ٥٩ - قول : ما شاء الله وشاء فلان . ٦٠ - الحلف بالله كاذبًا . ٦١ - إنكار
 اسم من أسماء الله تعالى . ٦٢ - إنكار القدر . ٦٣ - القول بالبدع ^(٢) .

(١) رواه مسلم .

(٢) انظر إلى : حصاد الألسن لحسين العوايشة - طبع : دار ابن عفان .

٦٤ - الخوض في علم الكلام وصفات الله على طريقة المتكلمين .
 ورحم الله الجُنَيْدَ حيث قال : « إنكارُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيبُ :
 عيبٌ » .

فطريقة أهل السنة في الإثبات والنفي في الأسماء والصفات ، هي طريقة
 الذين جاءوا بكمال الأدب مع الله عز وجل .

* * *